

موازنُ الناس في الميزان



هل العرفُ شريعة؟ ليسَ لدينا في الإسلام شريعتان: شريعةُ الله وشريعةُ الناس، أمّا إذا لم يصطدم العُرف الاجتماعي بحكمٍ إسلامي، فلا تعارض ولا تناقض، فلا ضيرَ في الأخذ به لأنّه سيكون ممّا أقرّه الإسلام، ولسنا في صدد مناقشة الموضوع من وجهة نظر شرعية فذلك اختصاصٌ غيرنا ولا نريدُ أن نتطفّل عليه، إلّا أنّا نريد أن نقول أنّ معايير التفاضل هي بكلمة واحدة، تلك التي تقيس بقيمة الإنسان كإنسان، وكمخلوقٍ محترمٍ ومُفَصِّلٍ ومُكْرَّم، أما ما عدا ذلك فهو دخيل وطارئ وأجنبي عليه ولو تعارف الناسُ على أنّه قيمة ومعيّار وميزان للتفاضل، ولكي لا نذهب بعيداً دعونا نضع اعتباراتِ الناس في الميزان العقلي لنرى كم هي، وكم تُساوي: 1- الحكم على الأزياء والملابس: اللباس سترٌ.. واللباسُ زينة. هناك وقاية.. وهنا إمتاعٌ للبصر. هو مطلوبٌ إذاً.. الحيوانات وحدها التي لا تستر ولا تتزيّن، تعيشُ العُريَ دائماً، أو قل كما خلقها الله من دون زيادات أو إضافات. واللباس اختيار.. وذوق.. وتعبير.. "اختيار" لأننا ننتقي من الألبسة ما نشاء، لكننا كمسلمين نُراعي في اللباس شروطه بأن لا يكون مثيراً للغرائز ولا داعياً للتخنّث، ونفصّله كما نحب بما لا يخرج عن العفّة في المحيط الاجتماعي، وبالتالي فهو تعبير عن لابسهِ، بمعنى أنّ الانتقاء والذوق والمراعاة لآداب الملبس كلّها تنطوي على تعبير عن شخصية اللابس. كيف إذاً نقول إنّ اللباسَ ليس جزءاً من الشخصية؟! أو لا: هو جزء من الشخصية الكمالية - إذا جاز التعبير - وليس جزءاً من الشخصية المعنوية للإنسان، فنحن هنا نتحدّث عن جانبين في

الشخصية: الجانب الجوهري أو القيمي، والجانب التكميلي أو المظهري المتغيّر. وثانياً: لنعرض المسألة على القرآن لنرى بـمَ يجب. يقول تعالى: (يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤْوَاكُم وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ) (الأعراف/ 26). اللباس من منظور قرآني: للستر (يُؤْوَاكُم) وللزينة (وَرِيشًا) وهذا هو الذي يشكّل اللباس الخارجي أو المظهري، أمّا اللباس الداخلي، فهو (التَّقْوَى) والورع عين محارم الله، فمرتكب الفاحشة عارٍ حتى ولو ارتدى أثمن وأزهى الملابس، والمتّقون مستورون حتى ولو لم يرتدوا إلا ما يغطي عوراتهم!.. هناك لباسٌ يبلى، وهنا لباسٌ لا يبلى بل وتزداد قيمته مع الأيام! إنّ الحديث عن اللباس والزينة في الجنّة هو بعض من نعيمها: (يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) (الحج/ 23). وفي موقع آخر: (وَلِبَاسُ سَوْنٍ ثِيَابًا بِلَا خُمْرٍ أَمْ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ) (الكهف/ 31). وهو حديثٌ عن (نوع) اللباس و(لونه) وعن (الحلية) التي يتزيّن بها أهلُ الجنّة. إذاً للملابس اعتبارها، ولكنّ العقل يقول إعطِ لكلّ ذي قيمة قيمته بلا زيادة ولا نقصان، وإلا إذا نظرنا بعيني فرعون لملابس موسى وهارون (ع) لرأيناها كما رآها، ولو نظرنا إلى مدرعة (ثوب) علي بن أبي طالب (ع) المرقّعة التي استحيا من راقعها لكثرة ما رُفّعها، بعين القيمة، لانتقنا من قدر علي، لأنّنا حينئذٍ نقيسُ قيمة الشخص بقيمة ما يلبس، وهذا هو الخطأ. الخارجُ علينا بلباسٍ نظيفٍ جميلٍ مكويٍّ ومعطّرٍ يسرّنا.. يسرّ الناظرين، وهو شيءٌ محبّب على عكس ذي الملابس الرثّة واللحية الكثّة. سؤلنا عمّا داخل وتحت هذه الملابس الجميلة من فكر وعمل وإبداع وتجربة وخُلُق وإيمان؟ فإذا انسجم الجوهرُ مع المظهر أو تقاربّا فزينا على زَيْن، وزينةٌ على زينة، وجمالٌ يتوجّ جمالاً. وإذا كان الباطنُ أجمل وأكمل، أهملنا النظر إلى المظهر لنُرسِلَ عيوننا ترتعّ في جنبات القلب الكبير، والروح العظيمة، والعقل السليم والسلوك المهدّب، فلا نعودُ نُبصرُ قشرة الفاكهة، بل نتذوّق طعمها ونكهتها.. ألسنا - في الغالب - نرمي القشور ونحرص على اللّثياب، أليس الغوّاص الباحث عن المحار واللؤلؤ يزهدُ بالصدف ويتشبّث بما في داخله.. قس هذا المثل أيضاً على الثياب. ولنعرض المسألة أيضاً على الشعر، وإن من الشعر لحكمة، لننظر ماذا يقول الشعراءُ الحكماءُ في ذلك: هذا أحدُهم لا يرى دخلاً للملبس في أصل بناء الشخصية: يا مَنْ تَلْبِسُ أَثَوَاباً يَتِيهُ بها **** تيهَ الملوكِ على بعضِ المساكينِ ما غيّرَ الجُلُوسُ [1] أخلاقَ الحميرِ ولا **** نقشُ البراذعِ أخلاقَ البراذينِ وقال آخر في خطأ الاستدلال على الشخصية من خلال الثياب: ولو لبسَ الحمارُ ثيابَ خزٍ [2] **** لقالَ الناسُ: يا لَكَ من حمارٍ وفي المعنى ذاته: ترى الرجل النحيف فتزدريه **** وفي أثوابه أسدٌ مزيرٌ [3] ويعجبك الطّـريرُ [4] فتبتليه.

**** فيخلفُ ظنُّك الرجلُ الطريرُ 2- الحكمُ على التقاسيم والملاحج الجسديَّة: الوجهُ،
ومن ثمَّ الجسدُ.. العنوان. والكتابُ.. هو الإنسان. وفي الأمثال "الكتابُ يُقرأُ من
عنوانه" فالكتابُ عادةً يراعي في اختياره لعنوان مقاله أو كتابه أن يكون حاكياً
ومعبراً. وناطقاً عن مضمون وفحوى كتابه ومقاله، ولكن هل يصدق هذا دائماً على الإنسان؟
"ستالين" الدكتاتور الروسي لم يكن قبيحَ المنظر، لكننا نراهُ كذلك لأن أفعاله قبيحة،
فدُسِّقَ هذا (التصوُّر) على تلك (الصورة) فيبدو ستالين في نظرنا قبيحاً، ثمَّ إنَّ
المجرمين لكثرة ما يلغون في دماء الناس، ويُسرفون في جرائمهم يُحقُّ بهاءُ الإنسانية من
وجوههم فتبقى قسماً الوجه لكنَّ زُورَه يتلاشى! الوجه صناعة الإنسان.. خلق الإنسان.. وليسَ لحسان
الوجوه أن يفتخروا بمزية أو تفضيل رباني، وإلا خرج السودُ في تظاهرةٍ احتجاجية، وإلا لما
كان الإنسان تعالى يغفلُ النظر إلى وجوهنا وأشكالنا يومَ القيامة، ويركِّز النظر على قلوبنا
وأعمالنا! الإكتفاء بالنظر إلى (محاسن الوجه) وعدم الانتقال أو الدخول إلى (محاسن النفس)
يعني الرضا بالخدعة. يقول (الشيخ الرضي): لا تجعلَنَّ دليلَ المرءِ صورتهُ **** كم
مخبرٍ سَمَّجٍ عن منظرٍ حَسَنٍ وقال (حسن بن ثابت): لا بأسَ بالقومِ من طولٍ ومن عِظَمِ
**** جسمِ البغالِ وأحلامِ العصافيرِ وفي مثل هذا المعنى قال آخر: لقد عظمَ البعيرُ
بغيرِ لُبٍّ [5] **** فلم يستغني بالعظمِ البعيرُ وقال شاعرٌ يحذِّرُ من مغبَّة الانخداع
بالمظهر الخارجي والقياس عليه: ما كلُّ أَصْفَرٍ دينارٌ لمُفْرته **** مُمْفِرُ العقاربِ
أرداها وأنكرها والدينار (الذهب) وكما قيل فالبعض من الخارج (رُخام)، ومن الداخل
(سُخام) أو كما عبرَ آخرون "طوله طولُ النخلة وعقله عقلُ الصَّخلة" ولعلَّه مستوحى من
المثل العربي: "ترى الفتیانَ كالنخلِ وما يُدريك ما الدَّخْلُ"! وحدِّد آخرُ الموقفَ من
النظر إلى الأجسام والهيكل الخارجية: فما عِظَمُ الرجالِ لهم بفخرٍ **** ولكن فخرهم
كرمٌ وخَيْرُ بُغَاثِ الطيرِ أَكْثَرُها فِرَاحاً **** وأمَّ الصقرِ مِقْلَةٌ نَزورُ [6] ضَعافُ
الطيرِ أطولُها جِسْماً **** ولم تطُل البزاةُ ولا الصقورُ 3- الحكمُ على الكلام: (وإنَّ
يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ) (المنافقون/ 4)، وهذا تصويرُ القرآن للمخادعين الذين
يبتزُّون الناس بكلماتهم المنمَّقة والمعسولة.. ترى أحدهم يخضع بالقول فيبدو ناعمَ
الملمس، رقيقَ الحاشية فكأنَّه يقولُ شعراً.. وترى الآخر يُقسمُ بالإيمان المُغلَّظة حتى
لا تشكُّ لحظةً أنَّهُ صادق، وترى ثالثاً يُبهرك بقدراته الوهميَّة المختلفة والمصطنعة،
ومنازلاته الجبارة، ومناقبه وتجاربه الغنيَّة.. ولعل رابعاً يستشهد بالآيات القرآنية
والأحاديث الشريفة والحكم والمرويات، وهو يلوي أعناقَ النصوص ليبدو في نظرك مُقنعاً
لأنَّه لا يأتي بالكلام من عنده.. إنَّه كلامٌ مقدَّس لا يأتيه الباطل.. إنَّهم يعرفون من أين
تؤكل الكَتِف... وكيف ينفذون إلى قلوب المخدوعين من آذانهم، وقد قيل في وصفهم: "يدُ

تُسبِّح.. ويدُ تَذِبِّح!"! وقيل أيضاً: "كلامُ كالعسل وفعلُ كالأسل" والأسل هي الرماحُ والسيوفُ والسكاكينُ وكلُّ حادٍ وقاطع. شاعرُ جرِّب الخداعَ في القول فاكتوى بناره، يقول: كَثُرَ الخداعُ اليوم في أقوالنا **** فانظُر إلى مَن قال لا ما قِلا البعضُ تشيطنَ حتى تعذّر فرزه، إنّه كالمادة التي فسدت وانتهت صلاحيتها، فاستبدلَ صاحبُها (المخداع الغشّاش) تأريخَ الصلاحية بتاريخ جديد ليوهمك أنّها جديدة.. إنَّك لن تعرف الحقيقة حتى تجرِّب المادة وتعرّضَ إلى التسمّم، وعندها تلفظها وترفضها بعد أن تكون دفعتَ ثمنها مرّتين.. ليس أمامنا إلّا التجربة والاختبار! وإلا قولوا لي هل هناك مَن لم يتعرّض لخداع مراوغ مُحْتال أو متلوّن نصّاب في ذلاقة لسانه وتلاعبه بالألفاظ وتغميسه كلماته بالحكم والآيات والأيمان.. نادرٌ جدّاً. الفعلُ هو الذي يُترجمُ القول فيصدِّقه أو يكذِّبه: (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ° إِنَّكُمْ صَادِقِينَ) (البقرة/ 111)؟! صادقٌ أنت؟.. هاتِ إذاً ما يثبتُ لي بالدليل صدقَ قولك؟ أنا طانٌ بكَ طنّاً، فكذِّبْ طنّي بموقفٍ يثبتُ لي صحّةَ ما تقول!

- [1]- الجُلّ: الغطاء الذي تُغطّي به الدابّة زينةً أو وقاية، جاء في الأمثال: "ليس الفَرَسُ بجُلّةٍ ويُرّقعهُ" بل بمهارته في السباق. [2]- خزّ: حرير، [3]- مزير: الشجاع. [4]- الطرير: ذو المنظر الحسن، [5]- اللُّبّ: العقل، [6]- في هذا البيت إشارة بليغة إلى أنّ الطيور التي ليس لها جوارح هي تلدُ فراخاً كثيرة، ولكن أم الصقر تضع واحداً ثمّ لا تحمل، وهي إذ تلدُ تلدُ صقراً مثلها!